الفصـــل الأول

أثر البيئة على رؤية الفنان :

لا نستطيع القول أننا نتعلم الفن داخـــل المدارس فقط وانما نتعلمه أيضا من خلال المعايشة فى ثقافة معينة فى زمن معين ، وبيئة طبيعية مميزة فالتعليم والثقافة والبيئة كلها مؤثرات لها دورها فى رؤية الفنان ومنتج الفن · ويلعب كل دوره فى تشكيل الرؤية لهذا المنتج · وعلى هـذا فاننا لا نستطيع أن نقـول بأن الفن يعلم داخـل المدرسـة وأن تغفل ما للثقافة وما للبيئة وما فيها من مظاهر وأشـكال وأحجام ، أى بطبيعة أرضها من تضاريس كالجبـال ، والهضـاب ، والوديان ، وكذلك جوها ومناخها من برودة ، وحرارة ، وجفاف ··· وهكذا ·

لقد حبا الله مصر بطبيعة فريدة فأرضها منبسطة ، وشمسها ساطعة ، وسماؤها صافية الى جانب جفاف جوها الذى كان له أكبر الأثر فى حفظ تراثها آلاف السنين بعيدا عن التحلل والتآكل ، وكان فيضان نيلها السنوى عاملا هاما ومساعدا للمصريين القدماء فى انماء أدراكهم نموا هندسيا · فقد كان عليهم أن يصبحوا مهندسين وأن يتعلموا بناء أعمال معقدة فى الرى حتى يتغلبوا على التشويه الناتج عن الفيضان السنوى للنيل ، لقد صنع المصريون القدماء مبادىء الهندسة والمساحة مطبقين قواعد الهندسة لاعادة تخطيط القنوات التى قد شـــوهها وطمسها النيل بالطمى أثنـاء الفيضـــان ، وذلك باستخدام الحبـال الممتدة · وعلى هـذا فان حاجة المصريين للزراعة قد أفادتهم ليصبحوا فلاحين مهرة كما ساعدتهم على

(شكل ١) منظر تظهر فيه الحقول المصرية بتقسيماتها الهندسية

السيطرة على النيل والصحراء معا فأحرزوا بذلك مهارات عديدة واستمر أفق معرفتهم فى الازدياد والاضطراد · (شكل ١)

اتجاه حركة الحياة فى ريف مصر :

والذهاب والأياب من الحقل واليه ظاهرة ترتبط بريف مصر · وهو المشـــهد المألوف والمتداول على مـــر التاريخ ، ويرتبط بشروق الشمس وغروبها ، فنرى قوافل الفلاحين ودوابهم متجهين من الصباح الباكر الى الحقول عائدين فى المساء · وتأخذ هذه القوافل طابعا مميزا وفريدا مازالت صورته مسجلة على جدران المعابد المصرية القديمة ، فيما نراه من قطعان للماشية يقودها الفلاحون · تسير عادة فى تتابع خلف بعضها البعض محاذية للنيل أو لاحدى قنواته ، أو على حافة الحقل ، هذه القوافل تعد سمة وعلامة من علامات الطبيعة فى مصر · وهى فى معناها تعكس الوحدة والتآلف والطمأنينه بين الانســـان والحيوان وبينهم وبين الطبيعة ـ تلك الطمأنينة التى استتبت على أرض الوادى منـذ أن اســـتأنس المصرى الحيوان وعرف الزراعة وأنشأ القرى والمدن · (شكل ٢ ، ٣) ·

(شكل ٢) العمل بالحقل رسم حائطى تظهر فيه حركة الحيـاة واتجاهها على أرض مصـر · ذهابا الى الحقل فى الصـباح وعـودة الى المنزل فى المسـاء ·

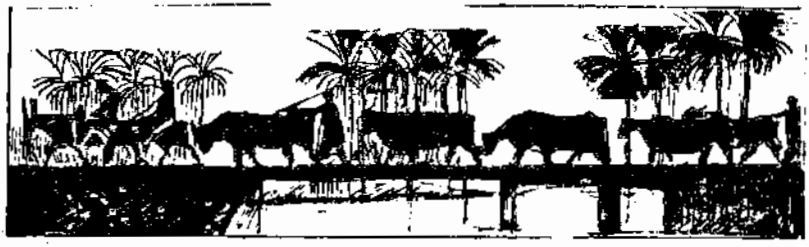

(شكل ٣) العـودة من الحقـل · رسم يمثل الحيـاة الحاضرة فى ريف مصـر ويؤكد نفس حركة الحيـاة فى (شكل ٢) ·

من المألوف لكل من عاش وتربى فى ريف مصر أن يعرف من ألعاب اللكمات Word Games تلك اللعبة التى يتسامر بها الأطفال عند المساء وهم جالسون فى منازلهم بعد أن يعود الكل من الحقل الى بيته للراحة بعد عناء العمل طوال النهار · يتجمع الصبية بعد العشاء يلعبون بعض الألعاب ومن هذه الألعاب تلك التى تسمى « سرح الفأر أو روح بجماعته » وقبل أن نشرح تفاصيل اللعبة نود أن نؤكد على كلمة « سرح » وهى تعنى الذهاب الى الحقل وكلمة « روح » وهى تعنى العـودة من الحقل الى المنزل ·

تعكس هذه اللعبة فى مضمونها مدى تأثير البيئة على الثقافة فى الريف فشكل الحركة واتجاهها ونوعها قد انعكس فى مضمون هـــذه اللعبة اللفظية · هـــذه اللعبة التى يجلس فيها الأطفـــال في شكل حلقة أو دائرة بينما يقودهم أحدهم الذى يبدأ عادة بقوله « سرح الفأر بجماعته » محركا أصبعه السبابة الى منتصف الدائرة يتبعة فى ذلك أصابع المجموعة وعندما يشرع فى القول « روح بجماعته » تتبعه كذلك أصابع بقية المجموعة بالعودة الى مكانها ـ وترتكز اللعبة أساسا على قدرة المجموعة على متابعة القائد فى الذهاب والاياب أو عدم الذهاب أو عدم الاياب ـ فهى نوع من التوافق بين الكلمة وحركة الأصابع · والذى يهمنا هنا هو أن الأصابع عادة تأخذ اتجاهها المباشر عندما يقول القائد ذهب الفأر « أو سرح » بجماعته فهى تتجه الى المركز مباشرة وكذلك فى الاياب أى عندما تعود « تروح » فالذهاب والاياب يتم عن طريق مستقيم لا التواء ولا انحدار ولا ارتفاع أو انخفاض فيه · بل اتجاه مباشر الى الحقل والعودة منه الى المنزل ـ هذه اللعبة تعكس علامة من علامات البيئة والطبيعة فى مصر ـ فذهاب الفلاح الى الحقل والعودة منه ليس ظاهرة مصنوعة وانما لشدة ارتباطها بظواهر البيئة والطبيعة فى مصر قد اندمجت فيها اندماجا كليـــا وأصبحت كغيرها من ظواهر الطبيعة كشروق الشمس وغروبها ، وضياء السماء ، وصفائها ، وجريان النيل من جنوب مصر الى شمالها · ان فلاح مصر ظاهرة طبيعية قد ارتبطت منذ الأزل ولا زالت ترتبط هـــذه الظاهرة بالبيئة المصرية · بل وأننا نستطيع أن نقول انه طالما هناك شروق وغروب ونيل يجرى على أرض الوادى طالما استمر الفلاح صنوا لهذه الظواهر البيئية فهو خالد خلود هـــذه الظواهر مرتبط بهـــا بل انه علامة من علامات الطبيعة على أرض مصر ·

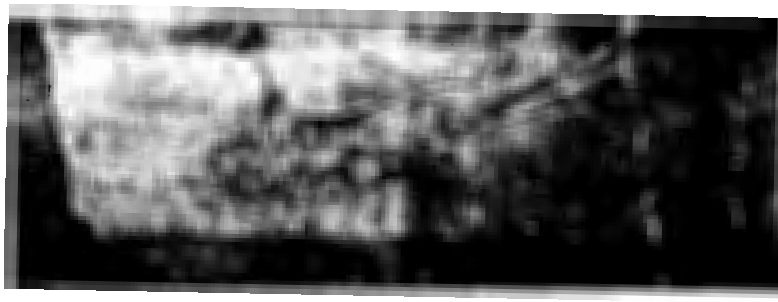

(شكل ٤) نموذج من الرليف المصـرى القـــديم

طبيعة جو مصر :

ان مناخ مصر كان له التاثير البالغ على رؤية الفنان ، فجفاف جوها واستقرار مناخها ، وانتظامه ، وتتابعة فى هدوء ورصانه قد حدى بالفنان المصرى القديم أن يستفيد من ذلك تماما · فزرقة الســـماء ، واتساعها الرحب ، وضياء شمسها ، واشعتها الصارخة الوهاجة قد خلق فضـــاءا لا نهائيا · ولقد استطاع الفنان المصرى القديم ان يستفيد من شدة الضوء وحركة الظل والنور فى عمل ، « الرليف البارز والغائر » (شـــكل ٤) النحت البارز والواطىء الذى يعتمد أساسا على حركة الشمس اليومية من الشروق الى الغروب وما تحدثه من ظلال واضواء عندما تنعكس على الأشكال والأجسام · فأستطاع ان يشغل واجهات المعابد والمنازل والقصور بتلك الرسوم الغائرة أو البارزة التى يلعب الضوء فيها دورا هاما وبالغا نتيجة لضياء الشمس وخلو السماء من السحب · ذلك أن الشمس بضيائها تنعكس على هذه الرسوم فيكشف الضوء عن الأجزاء البارزة والمرتفعه منها بينما تصبح الأجزاء الواطئة أو الغائرة معتمه ، ومن الظل والنور استطاع الفنان النحات المصرى القديم ان يجسد أشـــكاله بحذق ومهارة

فائقتين دون السعى وراء تلوينها أو اتخاذ طرق يتحايل فيها كى يجسد أشكاله رسومه وانما استفاد من الظل والنور فى تشكيل رسومه وزخارفه ٠

من المألوف للمصريين جميعا رؤية الشمس فى الصباح ٠ وفى ظهورها يزداد الضوء ويعم الكون ، وكلما زاد الضوء زاد تحديد الأشكال والأحجام بما ينتج من تضاد بين الظل والنور وربما يكون تحديد الأشكال والأحجام فى البيئة المصرية يعتمد أساسا على ما تحدثه الشمس من ضياء يبرز المعالم الظاهرة للأشكال بينما تصبح الأجزاء البعيدة عن الضوء معتمة أى مظلمة ٠ فالظل والنور هامان جدا فى تحديد الأشكال ربما يفوقان فى ذلك اللون ٠ فمن المألوف فى البلاد الباردة والتى لا ترى فيها الشمس عادة بل وتمتلىء السماء بالسحب أن يلعب اللون دورا هاما فى تحديد الأشكال حيث أنه لا وجود لظلال أو أضواء صارخة تحدد معالمها ٠ ومن هنا تظهر كل عناصر الطبيعة من أشجار وأنهار وجبال وكأنها لوحة رسمت أو قام برسمها فنان ٠ وما نراه فى لوحات الغرب التى ترد الينا اما لوحات قد رسمها فنانون أو أنها صورت تصويرا فوتوغرافيا كمناظر البيئة الطبيعية بما فيها من جبال وزهور بألوانها الطبيعية تعد حقيقة وهى ما يراه الانسان بعينه المجردة فى هذه البيئات فالأشكال تبدو الى الرائى بألوانها الحقيقية ٠

ومن المألوف أيضا أننا فى مصر نستطيع أن نقيس الوقت بحركة الشمس بما تحدثه من ظل ونور ٠ فتحرك الشمس فى السماء أثناء النهار يتحرك معها الظل والنور ٠ والظل والنور يبدوان خاليين من أى شائبه فلا سحب هناك تطمس الشمس وضيائها وانما ضوء صارخ يجعل الظل وارفا والضوء نقيا ساطعا ٠ ويوجد فى الأزهر الشريف ساعة شمسية

تعتمد اعتمادا كليا على حركة الشمس أثناء النهار وما تحدثه من ظـــل ونور ٠

الضوء كظاهرة طبيعية :

ان الضوء يعد أحد العناصر الهامة التى تكشف الحياة للانسان كما تفسر العين من خلاله معرفة الزمن وتلاحق الساعات والفصول ٠ والضوء من طبيعته خلق الفراغ كما أن الظلال توضح حجم الأشـياء وعمقها ٠ والظلال عادة اما أن تكون ظلالا لشىء على شىء آخر أو حتى من جزء فى نفس ذلك الشىء على جزء آخر منه ٠ والظلال التى ترتمى من شىء على شىء آخر تكون كالقوالب المطبوعة كتلك التى تكون لمنزل يمتد ظله ليقطع الشارع ويمتد لينطبع على ما يقابله من منازل فى الجانب الآخر لهذا الشارع ٠

كما أن الضوء يلعب دورا هاما فى الرؤية ٠ فلولاه لما قد رأينا الأشياء بوضوح ، فعن طريقه وعن طريق الظل تتحدد مثلا كروية البرتقاله (شكل٥)

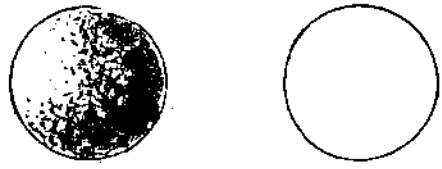

(شكل ٥) أثر الظـل والنـور فى تحـديد كروية الشكل

(م ٢ ـ منابع الرؤية فى الفن)

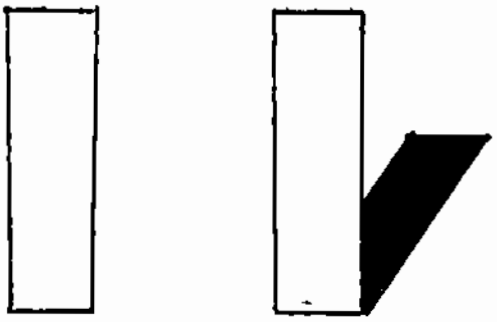

(أ)　　(ب)

(شكل ٦) أثر الظـل والنـور فى تحـديد البعـد

كما أن الظل المطبوع يخلق فضاء حول الشيء ففى (شكل٦) يوضح كيف أن المستطيل (أ) يظهر مسطحا على الأرضية الأمامية · حتى اننا لا نستطيع أن نتبين أو ندرك أى فراغ بينه وبين تلك الأرضية أى الفضـــاء حوله ، أما المستطيل (ب) يتضح فيه الاحساس بالأبعـــاد الثلاثة اكثر · وفي (شكل ٧) نستطيع أن نرى الى أى حد تلعب الظلال دورا هاما فى خلق الفراغ · ان الضوء يجعلنا نرى الأشـياء حولنا كمـا أنه يجعلنا نعرف شكل هذه الأشياء أو الاتجاهات التى تتخذها ، ومدى قربها أو بعدها عن الأشياء الأخرى ·

تغلغل الضوء فى نفوس المصريين :

ان النور كظاهرة ذكرت فى القرآن الكريم فى اكثر من موقع لأنها صفة من صفات الشرق موطن نزول القرآن الكريم · كما أن النور سمة من سمات الخالق سبحانه وتعالى · ففى سورة النور (٣٤) نقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم الله نور الســموات والأرض مثل نوره كمشـكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور

(شكل ٧) أثر الظـل والنـور فى خلق الفراغ

على نور يهدى الله بنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » ٠ وفى مواضع كثيرة فى القرآن يتجلى ما للنور من قيمة فى نفوس البشر ٠ ففى سورة ابراهيم نقرأ « بسـم الله الرحمن الرحيم الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور ٠٠٠ » فالنور والظلمة ظاهرتان واضحتان ضرب الله بهما الأمثال للناس، فالحب والخير والايمان ينطوى تحت النور ، أما السيئات والحقد والبغضاء وعمل المنكر ينطوى تحت الظلمات ٠

ولعلنا نستطيع أن ندرك ما للضوء كظاهرة لها أهميتها فى تشكيل عاداتنا ومفاهيمنا وكيف أن هذه الظاهرة ترسبت فى أعماقنا لتشكل جزءا هاما من عاداتنا الاجتماعية التى تعمل داخل ثقافتنا دون أن نعيها أو أن

نلتفت الى مصدرها ففى الصباح عندما يبادر انسان انسانا آخر بالتحية ـ وخاصة فى الأحياء الشعبية أو بين عامة الشعب الذين يعتبرون الامتداد الحقيقى للثقافة المصرية ـ نقول يبادره القول : بصباح الخير فيرد الآخر عادة بصباح النور · ويتضح « النور » كقيمة ليست مرتبطة بالصباح فقط وانما تمتد حتى فى المســاء فعندما نبادر بتحية المساء فنقول عادة مساء الخير فيكون الرد غالبا بمساء « النور » وكأن النور ظاهرة تتغلغل فى نفس الانسان المصرى فهو ليس مرتبطا بالصباح فقط وانما يتمسك به الانسان حتى فى المساء · وبمقارنة هذه التحية بما يدور عادة فى بلاد أوربا او الغرب فغالبا ما يبدءون بالتحية فى الصباح بقولهم Good Morning وذلك عند متحدثى اللغة الانجليزية ويكون الرد عادة بالمثل · وفى تحية المساء يقولون Good Evening و Good Night ولا يقف الحال عند متحدثى اللغة الانجليزية فقط وانما يتشابه مع غيرهم من الفرنسين أو الايطاليين أو الأسبان · أما فى مصر فان النور والضوء ينطبع فى ذهن كل مصرى وكل من عاش على أرض مصر فيتغلغل فى كيانه بل ويمتد من السلف الى الخلف يعكس حب المصرى للاشراق وللحياة ·

واذا كنا نرد بالتحية فى الصباح أو المساء مستخدمين كلمة «النور» فان هذا استخدام مباشر للكلمة ولكننا مع ذلك نستطيع أن نتبين من ردود أخرى عديدة مجازات تحمل فى طياتها نفس المعنى وخاصة ما يتداوله الناس فى الاحياء الشعبية أو من عامة الشعب·فيكون الرد مثلا بصباح « القشدة » أو « اللبن الحليب » أو بصباح الفل ، أو « الياسمين » · كل هذه الردود تحمل وتعكس فى حقيقتها معانى الاشراق والنور ، فلون اللبن أبيض والفل والياســـمين انما يعكس كل منها اشراق الصباح وتفتحه بالضياء والنور والأمل ·

ان الظل كظاهرة ناتجة عن فعل الضوء تحتار فى تفسيرها بعض

الشعوب البدائية ، فقبائل جنوب أفريقيا مثلا يتجنب الفرد منهم السير فى مكان مكشوف أثناء الظهيرة ، أى عندما تكون الشمس عمودية تماما حتى لا يفقد ظله أو خياله ، ولكى لا يرى نفسه بدون خيال ، كما أن معرفة هذه القبائل عن السبب فى أن خيالاتهم تصبح قصيرة أثناء الظهيرة عما كانت فى الصباح لا تعكس فهما لحركة الشمس الطبيعية أثناء النهار · فعندما سئلوا لماذا لا يخافون اذا عندما يفقد كل منهم ظله أو خياله عندما يحل المساء ويصبح ذلك الخيال أو الظل غير مرئى ومختفيا ، فانهم يجيبون على ذلك بأنه لا خوف من الظلام لأنه فى المساء تستند كل خيالاتهم على خيال الاله الأعظم لتستمد منه قوة ودفعة جديدة تعود لتظهر فى الصباح قوية كبيرة وذلك بعد ليلة من امتلائها فى حضن الخيال الأعظم · وهم بذلك يرون أن ضوء النهار يتغذى على الظلال ويلتهمها ولا يخلقها ·

أما عند المصريين القدماء كما ذكرنا من قبل فان الضوء أو النور وكذلك الظل قد استفادوا من خصائصها استفادة علمية ارتبطت بفكر واع يعكس مدى ما وصل اليه هذا الانسان من تقدم ذلك لما لاحظه الفنان المصرى القديم مثلا من حركة الشمس وما تحدثه من ظلال تتحرك مع تحركها فى السماء وكيف استطاع ذلك الفنان أن يجسد أشكاله البارزة والنائتة على واجهات المعابد والعمارة المصرية القديمة · الأمر الذى تستطيع أن تقول معه أن هذا التفكير الذى ابتكر أشكال النحت البارز والغائر انما يعكس مدى الترابط بين الفكرة وأخراجها · ففكرة الخلود ورؤية الفنان للطبيعة وما فيها من خصائص جعلت الفنان يجسد ذلك النحت الذى يعتمد على النور والضوء الصارخ لأشعة الشمس أثناء النهار الأمر الذى يجعل كل واجهات المعابد وأشكال العمارة المصرية القديمة تبدو بزخارف نحتية واضحة للعين وفى نفس الوقت فانها خالدة خلود الدهر ·

وما ينطبق على الفنان المصرى القديم وبخاصة فى استفادته من خاصة الضوء ينطبق أيضا على من جاء بعده · فالفنان المصرى الاسلامى قد استفاد من هذه الخاصة أيضا ، فأخرج لنا المآذن الباسقة ، والقباب المتنوعة ، والمساجد بزخارفها البارزة ، والواطئـــة مستفيدا تماما من ظاهرة الضوء ·

تآلف الانسان مع البيئة :

لقد كان لاعتدال جو مصر ومناخها الفضل الكبير فى نمو حضارتها ذلك الاعتدال الذى أعطى ومازال يعطى ساكنيها مهلة للتأمل ورؤية الطبيعة فى راحة واتزان وليس فى عجلة وتوتر ، لقد لعبت البيئة دورا هاما فى حياة أهل مصر . فرحابة جوها واتزانه قد حـدا بأهلها أن يتآلفوا معها ، فتناولوا كل مظاهر بيئتهم من طير ، وحيوان ، ونبات وجماد ، بالدراسة والتأمل وسجلت الحضـارة المصرية القديمة على جـدران المعابد وفيما تركـوه من آثار أدلة عـلى ذلك فلمست الحضـارة كل نبتـه وكل كائن بالتمثيل · سجلت وكأن مسجليها كانت لديهم عدسات التكبير التي تساعد الفاحص المتأمل على ادراك تفاصيلها ، فحولت أشـــجار النخيل لتصبح تيجانا للأعمدة وزهرة اللوتس لتزيد جمالا لمبوساتهم وأثاث بيوتهم ·· سجلت هذه الحضارة ما فى البيئة تسجيل المتأنى المتأمل الذى لا تجرفه الطبيعة باعصار مدمر أو موجه برد قاسية تتجمد فيها الأوصال ويتصلب منها العقل وتشل حركته · وانما كانت ولازالت مصر فسيحة الأرجاء ، عليلة الهـــواء ، اذا نظرنا الى الوادى وجدناه مترامى الأطـــراف تحف به الصحراء ، الكل مغطى ببحر شديد الزرقة تضيئه الشمس فى النهار وتتلألأ فيه النجوم ليلا ·

تناول الفنـــان المصرى القديم كل ما فى بيئته بالتأمل والدراســـة فتعانقت صلابة الصخر برقة النبات واندمج الكل فى الجزء والجزء فى

الكل · فعلى قدر المسافة بيننا وبين الاهرام مثلا تتحدد أحجامها ، فاذا رأيناها من البر الشرقى للنيل تطالعنا فى الأفق بأشكالها الهندسية مستقرة على سطح الأرض محاذية للنيل واذا نظرنا اليها من الصحراء أصبحت مجرد نقط متناثرة ، واذا جلسنا بجوارها طالعتنا أحجامها الهائلة وبهرتنا ضخامتها · انها سمة من سمات الشرق عامة والبيئة المصرية خاصة · فمهما كبر الشيء وعظم احتوته البيئـــة باتســـاعها ورحابة ســـمائها وشـــدة ضيائها (شكل ٨ ، ٩) ·

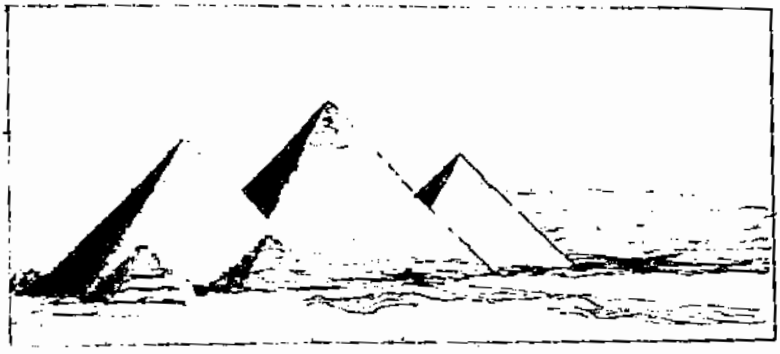

(شكل ٨) أضـــواء وظلال على أهرامات الجيـــزة

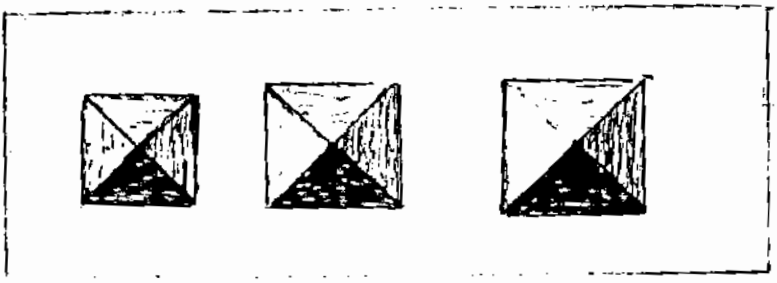

(شكل ٩) منظر علوى للأهرام يتضح من خلاله أهمية الظل والنور فى تحـــديد الأشكال ·

واذا كان النور ظاهرة من ظواهر الشرق المألوفة والمميزة استعان بها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة لضرب الأمثال وربط النور بالهدى والظلمة بالضلال نشير هنا أيضا الى مثال أورده الدكتور محمد كامل حسن فى كتابه متنوعات عن كلمة « الله اكبر » وكيف كانت هذه الكلمة بهذا التركيب تتوافق تماما وتعبر تعبيرا تاما عن أعمق ما فى طبيعة البلاد العربية التى يغلب على معظمها الصحراء ·فيستطرد قائلا : «···فالبدوى الذى يعيش فى الصحراء هو وحده القادر على أن يرى أن « اكبر » كلمة تستطيع أن تقوم وحدها فان أردت تحديداً أجابك أكبر من كل شىء هذا التعبير لا يخطر الا لقوم لا يحجب نظرهم شىء فهم يجيلون الطرف فى الصحراء فيلمون بكل ما دون الأفق · وهم يعلمون أن وراء الأفق مثل ما دونه وأنه حين يقـــول أكبر فلا حاجة به الى التحديد ولا يمكن لقوم يعيشون فى جبال شاهقة مسلسلة أن يخلقوا مثل هذه العبارة فهم يعلمون أن وراء كل قمة قمة أخرى وأن المفاجآت كثيرة ولا يمكن أن يخطر ببال أحدهم أن يقول أكبر دون تحديد · وأهل الشمال لا يسيغون مثل هـــذا التعبير الشامل الواسع غير المحدود فحياتهم قائمة على الدقة والتحديد ومكافحة الطبيعة والتركيب الخاص الذى يأتى فيه أفعل التفضيل دون تحديد أمـــر لا يخطر لغير بدوى يعيش فى صـــحراء هو أعلم الناس بكل ما فيها وليس فى حياته ما يدعوه الى تحديد فكرة أو تحليل دقيق لأمر من الأمور هذا التعبير « الله أكبر » الذى يحس معه الانسان المدى الواســع والأفق الممتد والصحراوات الشاسعة لم يكن ليتفق الا للعرب وهو يعبر عن عقليتهم وطباعهم بأكثر من المعنى العـــادى للألفاظ وهو لا يصلح الا تعبيرا عربيا خالصا » ·

فى مقابلة ل بيجته Piaget مع مجموعة من الأطفال أصر طفل فى السابعة على أن السماء هى التى تمدنا بالضـــوء ولكن الشمس ليست

كالضوء · هذا ما يقوله الطفل ويستطرد قائلا ان الضوء يوضح ويكشف النقاب عن كل شيء ولكن الشمس اينما تكون · يقول طفل آخر شارحا : أحيانا عندما تصحو الشمس فى الصباح فانه يرى أن الجو سوف يصبح رديئا · من خلال هذه الكلمات التى أدلى بها كل من الطفلين الأول حينما يقول أن السماء هى التى تمدنا بالضوء ولكن الشمس ليست كالضوء انما يعكس ما للبيئة من تأثير على رؤيته ولمعرفته لمصدر الضوء · والطفل الثانى الذى يؤكد بقوله « أحيانا » عندما تصحو الشمس فى الصباح انما يعكس أيضا ما للبيئة من تأثير على الطفل ، كما انه أيضا يعكس نوع البيئة التى يعيش فيها ذلك الطفل فهو عندما يقول « أحيانا » يدل دلالة قاطعة على أن الشمس فى هذه البيئة لا تظهر باستمرار أو بصورة مستمرة بل انها قابعة وراء السحب تحجبها عن الاعين تماما وعلى هذا فان الطفل لا يدرك مصدر الضوء ومنبعه · ولو أننا استضفنا مثلا أطفالا مصريين يعيشون على أرضها فلن يصر أحد منهم على أن السماء مثلا مصدر الضوء وانما الضوء يأتى من الشمس · كما انهم أيضا لا يقولون « أحيانا » عندما تصحو الشمس ـ بل سوف يقولون « عندما » تصحو الشمس · ذلك لأن استيقاظ الشمس ونومها ظاهرة ووجود مستمر دائم مع كل صباح على أرض مصر وربما تكون هذه هى الملحمة الأساسية والمستمرة التى تدور رحاها منذ آلاف السنين وحتى يومنا هذا ·

والشمس للمصريين الى جانب أنها مصدر للدفىء والحياة فهى أيضا مصدر للضوء · الحقيقة التى ربما تختلف عند الغرب والغربيين فهم على ما يبدو يرونها كمصدر للدفىء والحرارة وليست كمصدر للضوء والضياء · المعروف أن فانجوخ Vincent Van Gogh كما يطالعنا تاريخ الفن انه قد قضى حياته فى شوق دائم للوصول الى جنوب فرنسا ليرسم ويصور لوحاته تحت شمس الجنوب الدافئة ، وعلي ما يبدو أن

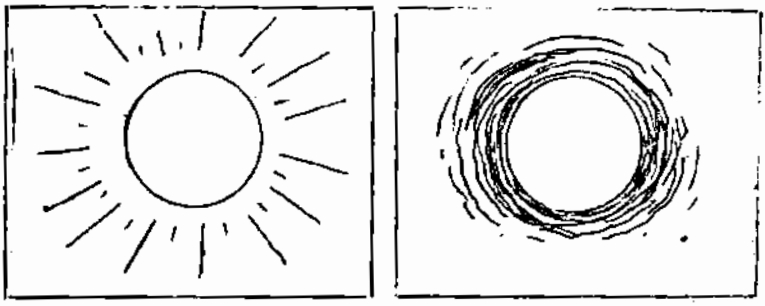

(ب) (أ)

(شكل ١٠) (أ) ـ خطوط تظهر كهالات حول قرص الشمس تعطى الاحساس بالحرارة والدفىء (ب) ـ أشعة منبثقة من قرص الشمس تعطى الاحساس بالنور والضياء ٠

الشمس كانت للفنان فانجوخ مصدرا للدفء وليست مصدرا للضوء كما ظهر فى معظم لوحاته ٠ لو تأملنابعناية معظم رسومه عن الشمس لشعرنا كيف أنه قد صورها كما لو كانت طبقا ملتهبا أو متوقدا شبيها بتلك المواقد الكهربائية الملتهبة (شكل ١٠ أ) وليست كمصدر للضوء والضياء (شكل١٠ب) ان معظم شموسه تبدو وكأنها بدون أشعة صادرة منها الى الكون هذه الشموس قد رسمها وصورها محاطة بهالات دائرية تشبه التردد الموجى الصادر من محطات الارسال السلكية واللاسلكية أو التلفزيونية ، بمعنى آخر فان هذه الموجات الدائرية حول شموسه تتشابه كالتأثير الذى يحدث فى الماء عندما تقذفيه بقطعة منالحجر وماتحدثه قطعة الحجر هذه منموجات وتموجات دائرية علىسطح الماء تضيق وتتسع ثم تتلاشى ببعدها عن مركز سقوط قطعة الحجر فى الماء ٠ ان الهالات الدائرية التى يلف بها فانجوخ شموسه انما تعطى الاحساس بأن الشمس مركز حرارى وليست مصدرا للنور والضياء ٠

(شكل ١١) شخصان مع أشـجار السرو ـ فانجـوح ١٨٨٩

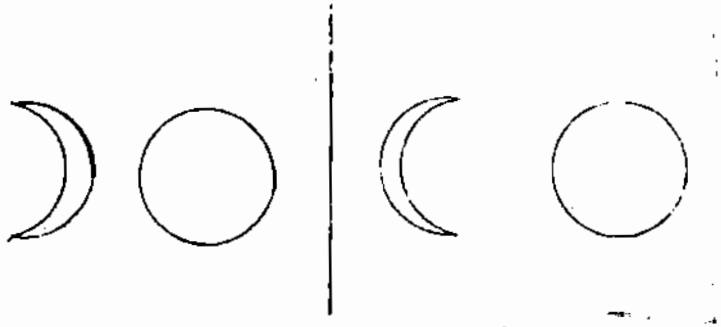

(ب) (أ)

(شكل ١٢) أ ـ يبين رسم فانجوخ للشمس وانعكاس ضوئها على القمر ب ـ يبين الانعكاس الصحيح لضوء الشمس على القمر ٠

ان الاهتمام بالشمس كمصدر للدفء والحرارة يتأكد من تحليل لاحدى لوحات فانجوخ وهى المسماه « شخصان مع اشجار السرو » (شكل ١١) ١٨٨٩ Cypresses With Two Figures

ويتضح فيها كيف انه قد أخطأ فى تصوير ضوء الشمس على القمر فالهلال فى الحقيقة لابد أن يظهر محدبا تجاه مصدر الضوء والذى يظهر فى (الشكل ١١٢ ، ب) يؤكد العكس ٠

انها البيئة وما تحتويه من مظاهر تنعكس على الرؤية البصرية للفنان واذا كان فانجوخ لا يهتم بتحديد مصدر الضوء أو أن الضوء لا يشغله بقدر ما يود أن يرمز الى الشمس بدفئها فاننا نستطيع أن نشير هنا الى أن معظم من صورا مصر من الفنانين المستشرقين قد صورا السحب الكثيفة فى خلفيات لوحاتهم ورسومهم عن مصر ٠ فتظهر السماء ممتلئة بالسحب التى تنبثق من خلفها أشعة الشمس هزيلة خافته وكأن مصر تريض دائما تحت غمامة من السحاب ٠ هذا التصوير فى حد ذاته يعكس مدى تأثر هؤلاء الفنانين ببيئاتهم الأصلية ومدى تأثير هذه البيئات على رؤيتهم الفنية ـ

كما انه يدل من ناحية أخرى على ان انتاج الفن يتأثر بالبيئة بما فيها من مظاهر للجو أو المناخ كالضوء والشمس وما تحدثه من ظل ونور ٠

الضوء يكشف الحياة :

للكاتب تجربة شخصية لا يزال يذكرها عندما وطأت قدماه احدى دول أوربا الغربية وهى هولندا وهو فى طريقـــه الى الولايات المتحدة الأمريكية ٠ كان عليـه أن يقضى البقية الباقية من الليل فى أحـد فنادق مدينة امستردام وفى الساعة التاسعة والنصف صباحا من اليوم التالى استيقظ ونظر الى ســـاعته ليعرف الوقت والقى نظرة الى الخارج ليرى معالم المدينة فى الصباح فتبين أن هناك خطأ فالساعة تشير الى التاسعة والنصف صباحا بينما الأنوار مازالت تضىء الشوارع بالخارج والمدينة تقع تحت ضباب وغيوم كثيفة ولا اثر للشمس على الاطلاق ، وأرجع ذلك الخطأ لساعته وحتى يتأكد من ذلك بادر ادارة الفندق بالاتصـال لمعرفة الوقت فاذا هى التاسعة والنصف وأن الساعة مضبوطة ٠ وظل الجو هكذا حتى منتصف النهار حينما بدأ الضوء فى الزيادة ولكن المدينة ظلت تقبع تحت سحابة لا نهاية لها ولا بداية حيث لا يظهر للشمس وجود أو أى اثر ٠ واختفاء الشمس يجعل الأمر غاية فى الصعوبة وخاصة عند معرفة الوقت فيتشابه الجو عند الصباح والمساء ، الأمر الذى لا تستطيع أن تتصوره فى مصر ، حيث الضوء الذى يبدأ خيطه فى الظهور مع طلائع الفجر والذى لا يلبث ان يعم الكون ببروز الشمس ٠ ذلك الضوء الصارخ الذى ينير الكون فى الصباح الباكر ويزداد سطوعا مع ارتفاع الشمس فى السماء ٠ حتى بعد مغيبها يظل الكون برهة يمتلىء من ضيائها ٠ ان شدة ضياء الشمس من الصفات البارزة والواضحة فى البيئة المصرية الأمر الذى يجعل النظر الى السماء من الصعوبة بمكان لشدة الضوء الناتج عن وهج الشمس ٠

اثر البيئة على رؤية الفنان المصرى الاسلامى :

مع دخول الاسلام مصر بدأ الفنان المصرى الاسلامى فى الاستفادة من البيئة وما تحتويه من خصائص شأنه فى ذلك أجداده السابقين · فتناول ظاهرة الضوء الساطع وماله من تأثير على الأشكال والأحجام بتحديد معالمها ، وطبق ذلك فى خدمة الفلسفة الجديدة للاسلام ، فاستخدم ظاهرة الظل والنور فى علاقة الأشكال بأرضياتها واستطاع ان يتحكم فى شدة الضوء يخلق « المشربيات » Orials التى تحجب الضوء وتلطف من حدته وذلك عن طريق الزخارف التى يلعب فيها الشكل تارة كأرضيه والعكس ، وتكرار الزخارف يخلق حركة دائبه لا نهاية لها تثير الخيال وتشغل البصر ليمتد معها فى متعة لا نهائية يدور ويدور منطلقا من نقطة الى أخرى دون الاحساس بالملل أو الرتابه · وانتقال النظر من وحدة الى أخرى متابعا انتشار تلك الوحدة الزخرفية يساعد الرائى على أن تشف وتصفو نفسه حيث تجذب هذه الوحدة عيناه لرؤية نسيج يعكس غنى الحياة ونضارتها ونقاؤها ، ولقد استفاد الفنان الاسلامى أيضا من الضوء فى عمل الزخارف الخارجية البارزة على أسطح القباب والمآذن وواجبات المساجد · الحقيقة التى تؤكد أرتباط الفنان المصرى الاسلامى ببيئته وما تحتويها من خصائص · ويطالعنا بالقاهرة العديد من القباب التى تمثل الاستفادة التامة مما تحدثه الشمس من أضواء وظلال فى فى أبراز أشكال وأحجام الأشياء · وما نراه من وضوح للزخارف على القباب ـ تلك الزخارف البارزة والواطئه التى سبق الاشارة اليها ـ انما يؤكد هذه الحقيقة · فنشاهد ذلك فى قبة المدرسة الجوهرية بالجامع الأزهر وكما نشاهده أيضا فى قبة الامير برسباى وقبة زين الدين يوسف وغيرها من القباب المنتشرة على أرض مصر حيث يلعب الظل والنور فيها دورا هاما فى تحديد وتجسيد زخارفها وأشكالها والتى تجذب العين اليها فتستمتع بما يحدثه الظل والنور من تحديد لاشكالها وزخارفها · ويوجد

الكثير من الزخـارف النحتيه التى تعلو كل المســـاجد والتى تختلف فى أشكالها وتصميماتها ، غير أن كل هذه الزخارف انما تعتمد اعتمادا كليا على ظاهرة الضوء وما يحدثه الظل والنور فى خلق أشكالها وهناك أمثلة عديدة لهذه الزخارف النحتيه التى تعلو المساجد المختلفة نذكر منها تلك الزخارف التى تعلو مسجد أحمد بن طولون والجامع الأزهر والعديد من المساجد الأخرى ٠